

الكرد الفيليون بين القومية والمذهبية
(الفيليون, العراق, الهوية الثقافية, الهوية الاجتماعية)

د.شاكر سعيد

قسم الانثروبولوجيا والاجتماع-كلية الاداب -الجامعة المستنصرية

shalbidany@yahoo.com

The kurdi Faili

between their nation and sectarian
(Fylie, Iraq, cultural identity, social identity)

By

Assistant professor, Shakir Saeed Shaheen

Anthropology & Sociology department-college of Arts/Almustanseria University
shalbidany@yahoo.com

الملخص

يدور البحث حول مكون عريق من مكونات المجتمع العراقي وهم الكرد الفيلينيون الذين يسكنون عدة محافظات في وسط وجنوب العراق. واختارت الدراسة عينة من القاطنين منهم في بغداد لاجراء الدراسة الميدانية حول مفصلين مهمين وهما انتمائهم القومي كونهم اكراد, وعقيدتهم الدينية بولائهم لاهل البيت حسب العقيدة الشيعية. ومن خلال نتائج البحث الميداني بتوزيع استمارات الاستبيان وادوات المقابلة المعمقة لبعض النخب الفيلية, والجماعات البوذية, توصل الباحث الى ان عينة البحث تفضل الولاء الديني (الهوية الاجتماعية) على الانتماء القومي (الهوية الثقافية).

The research is concerned with a long-standing component of Iraqi society, they are Faili who living in several provinces in central and southern Iraq,. The study selected a sample of those residing in Baghdad to conduct the field study on two important factors, namely, their national affiliation as Kurds, and their religious faith by virtue of their loyalty (Ahal albait) according to Shi'a ideology. Through the results of the field research by distributing questionnaire , depth interview to some elites, and focal groups, the researcher found that the research sample prefers religious loyalty (social identity) to national affiliation (cultural identity).

المقدمة

ينحدر الفيلليون من (اللور) وهم عشيرة كردية عميقة الجذور في كردستان العراق وايران. ويمتازون عن سواهم من الاكراد بانهم يجمعون بين هويتين الاولى قومية تجمعهم مع الاصل الكردي، والثانية دينية مذهبية حيث انهم من الشيعة الجعفرية. بشكل اكثر دقة تنقسم هويتهم الى هوية انتماء belonging وهي الهوية الثقافية لتجذرهم من الناحية الدموية والعرقية في الاصل الكردي، وهوية ولاء loyalty وهي الهوية الاجتماعية لما يعرف عنهم بالولاء لاهل البيت. والهوية الأخيرة تجمعهم في بناء متماسك مع سكة بغداد بحيث يشكلون بنية منسجمة عقائديا في البناء الاجتماعي تميزهم عن الطوائف والاثنيات الأخرى. لذا تشكل هويتهم الاجتماعية الولائية عنصر قوة اكثر من الانتمائية لاسباب:

- 1- انهم مثل الشيعة يعتقدون (بالمظلومية) التاريخية وهي احدى المرتكزات التي يتكى عليها الشيعة العرب في المنافسة على السلطة.
- 2- وهناك مظلومية سياسية- قومية تخصهم تدور حول اعمال التهجير والعنف السياسي الموجه من قبل الحكومات المتعاقبة عليهم.

ولغرض تحقيق هذا الانسجام والاستمرارية مع الشيعة فان توجهاتهم السياسية بعد 2003 كانت ضمن البيت السياسي الشيعي دون ان ينخرطوا في تحالف مع القوى الكردية القاطنة في كردستان رغم انهم مدينون تاريخيا لعطف الحزب الديموقراطي والاتحاد الوطني في مواقف عدة.

هكذا نجد الكرد القبليية رغم اقليتهم في المجتمع البغدادي لكنهم استطاعوا فرض موقعهم وحققوا العديد من المكاسب (يرونها قليلة) قياسا بالاقليات الأخرى وذلك نتيجة انصوائهم تحت خيمة التحالف الوطني الشيعي الذي يمثل القوة الكبرى في البرلمان والحكومة وبالتالي صاحب النفوذ الاوسع في المجتمع.

الدراسة الحالية ستوضح الاجابة عن التساؤلات المخرجة في المعادلة الاجتماعية حول الفيليين وهي هل انهم شيعة كرد أم كرد شيعة، وذلك حسب الهيمنة التي تفرضها الهوية الاجتماعية كسلطة نافذة على شخصية الفيلي اكثر من هويته الثقافية، أم يحصل العكس عندما تفرض الأخيرة سلطتها كونهم يميلون نحو قوميتهم مهما كانت عقيدتهم. من طرف آخر كيف يمكن لطبيعة

المدينة (بغداد) ان تغير من طبيعة الفرد وجماعته وتؤثر في اتجاهاته فيتحول من ولاء الى آخر كتأكيد لميوله البراغمية المنسجمة مع طبيعة المدينة النفعية. فهل ان استيطانهم بغداد واشتغالهم بالتجارة كمورد اساسي قد جعلهم يميلون نحو الشيعة الذين مالوا من جانبهم نحو التجارة كتعويض عن خسارتهم المناصب الوظيفية وهربا من بطش النظام السابق, اكثر من ميلهم نحو أبناء جلدتهم من الكرد الذين لا تقل معاناتهم من الانظمة الحاكمة عن الشيعة.

هذه التساؤلات وغيرها تطرح اليوم على الشخصية الفيلية التي تعد عنصرا من عناصر المجتمع البغدادي وليس الكردستاني. لكنهم قد يفرضون منهاجا آخر للتعامل بناء على القومية التي يعرفها بندكت اندرسون بانها جماعات متخيلة, أي قادرة على عبور الجغرافية وعوائق المكان لتتوحد في نسيج متكامل يجمع شتاتها ومن ثم لتحقيق الغاية من اللعبة السياسية وهي انها تتأرجح في صدقها فيكون صديق الامس خصما في المستقبل او العكس.

وكل ذلك وفقا لحسابات النخب السياسية المهيمنة والثقافية المؤدلجة, وايضا – وهو الاهم – حسابات الفيليين انفسهم كجماعة ناهضة تمنح اصواتها (ولاءاتها) لمصلحة من تراه يحقق طموحاتها في مجتمع اصبح يعيش يوميا على السياسة ومناخها المتقلب والذي اثر حتما على شخصية الانسان العراقي.

ملاحظات تمهيدية

1- تشتمل الدراسة على قسمين الاول نظري خاص بالتعريف بالفيليين وعلاقتهم بالدولة والاضطهاد الذي مورس ضدهم. اما الثاني فيعنى بالحقل الميداني الذي تم فيه الاستعانة بادوات بحثية هي : المقابلة المعمقة ثم الجماعات البؤرية ثم الاستبيان واخيراً الاحصاء الوصفي. والحقيقة ان ورقة الاستبيان لم يكن لها ان تتم بصورتها النهائية لولا اتباع الأداتين الأوليين. اذ توفرت على معلومات غاية في الاهمية قبل الشروع بتصميم الاستمارة.

2- تخللت الدراسة صعوبات جمة, ولا اغالي اذا قلت انه اصعب بحث اجرته وذلك للغموض الذي يكتنف هذه الجماعة بسبب ضياع جزء كبير من تاريخهم وانداس هويتهم الثقافية حتى انهم (كما سنجد لاحقا) لا يتكلمون لغتهم الاصلية الا قليلاً. الصعوبات التي واجهتني تمثلت بعقدة الخوف التي تستمكن من الفيلي والتي اكتسبها على اثر العذاب الذي استمر لعقود طويلة من الزمن بحيث انه يخشى من ورقة الاستبيان او البوح بسر معين بسبب (الخوف) من صعود احد المستبدين للسلطة ويقوم بتهجيرهم لانهم لازالوا (أجانب) كما يقولون. بل ان احدهم قال ساخرا اثناء توزيع الاستبيان: هل هذه محاولة جديدة لتسفيرنا ؟ هذا رغم ان الفيلي معروف بصلابته وشجاعته, لكنه ليس خوفا مادياً بقدر ما هو خوف من المستقبل, وهذا ما سنجده من السؤال المتعلق برؤيتهم لمستقبل الفيلية. وهذا الخوف ادى بالكثير من شبابهم لمعاناة العزوبة بحيث هرم بعضهم ووصل الستين وما زال عازباً. قالوا لي اثناء توزيع الاستبيان انهم الى اليوم يخافون من رنة الجرس والطرق على الباب! والاصعب من ذلك طبيعة الاسئلة التي اعتبروها محرجة وهي عموماً تبحث في الخيار بين المذهب والقومية, حيث تتصل البعض من الاجابة باعتبار ان الاسئلة فيها روح طائفية, وهذا وان كان يعد فضيلة بحد ذاته كونهم

يثبتون اعتدالهم ووطنيتهم, لكنه اثر عليّ لاستنزاف وقت وجهد قبل ان اطرح لهم فكرة ان الاسئلة في حدود البحث فقط. والبعض لم يجب على مثل هذه الاسئلة وتركني في حيرة من امري, ولذا وضعت حقلا للاجابات المهمة (صفر) مما قلل من نسبة التمثيل للاجابات المطلوبة لبعض الاسئلة.

3- الصعوبة الأخرى حول مفهوم الفيلي نفسه, اذ بعد لقاءات عديدة طرح الفيليون الاقتراح في عكس الاكراد وحدهم لهذا المكون وابعدوا من يدعي بالانتماء للفيلية عن غيرهم مثل المندلوي والقرلوسي...يقول اسكندر: " ان سكان لور الصغرى لا يسمون كلهم فيلية, والذين استقروا في بغداد من سكان لور الاصليين وحدهم كانوا يعرفون بالكرد الفيلية, في حين ان المتحدرين من لور الصغرى الذين يعيشون في اقصى جنوب كردستان العراق(خانقين, مندلي, شهربان, بدره وجصان, زرباطية, قزلبوات, الخ) لا يسمون فيلية "1. لذا تم استثناء هذه الفئات من الدراسة مخافة الوقوع في مشكلة تبعدنا عن الموضوعية.

القسم الاول

من هم .. التاريخ المنسي

برز ذكر الفيليين بعد سقوط نظام البعث في 9-4-2003 مثلهم مثل باقي الاثنيات والاقليات المقموعة التي اندرس ذكرها وقتذاك بسبب التغطية الاعلامية الموجهة لاجبار النظام واهمال ما سواه. ولتحقيق مثل هذا الظهور على الساحة السياسية والاعلامية عمل الفيليون على استعادة ماضيهم المأساوي الذي تعرضوا فيه للابادة والتشريد ومصادرة الاملاك وابشع الممارسات القمعية. ولكن من هم هؤلاء الفيليون ؟

هم من اكراد العراق واصل من اصوله الثقافية والحضارية وقد استوطنوه منذ العام 539 ق.م, وتمتد جذورهم في ايران ايضا حيث اقليم كرمنشاه الى جانب وجودهم في عيلام وخوزستان وسربيل زهاب وقصر شيرين². تسمى المنطقة التي استوطنوا فيها بشتكوه وبيشكوه, ويشغل وجودهم حيزا واسعا على جانبي الحدود العراقية الايرانية. ولعل اول اشارة تاريخية للكرد الفيليين باسمهم الحالي يعود الى سنة 805 هـ / 1402 م حيث كانوا يقيمون في مندلي (في العراق) عندما عبرت قطعات الجيش التيموري ديزفول وداهمت " احشام ساكي وفيلي " ونهب العساكر اموالهم³.

يعود اصل الفيليين الى قبائل تسمى " اللز " التي قطنت في المنطقة المعروفة بلورستان اي بلاد الله التي تقع بين اقليم الجبال في الشمال واطليم خوزستان الاهواز في الجنوب والعراق في الغرب واصفهان في الشرق, ويشير الحموي الى ان معنى اللز هو جبل من الاكراد⁴. أتى على ذكرهم عدد من المؤرخين والجغرافيين القدامى امثال الاصطخري المتوفي في 957 ميلادية في كتابه (صور الاقاليم والمسالك والممالك), وحمد الله بن المستوفي القزويني الذي انجز كتابه (نزهة

القلوب) في العام 740هـ ، حيث يقول " ان مواطن اللور الكورد تنقسم اداريا الى لورستان الكبرى وهي المنطقة الجبلية ومايلها من السهوب شرقا (ضمن الحدود الايرانية اليوم) ولورستان الصغرى (واكثرها يقع ضمن الحدود العراقية الحالية غربا) "5.

ولخزل الماجدي رأي فريد يعتبر فيه ان الفيليين ليسوا عرباً ولا كرداً ولا عجماً بل هم نبط آراميون من سكان وادي الرافدين استعربوا بعد الاسلام مباشرة مثل بقية الآراميين والنبط في العراق, ثم استجمعوا واجبروا على موالاته الفرس قبل وبعد سقوط بغداد وظهور الدويلات الفارسية في ايران, واستكردوا الآن طلباً للحماية من القوى الكردية. ويستشهد بالباحثة لمياء الصافي التي ترى ان المناطق التي يقطنها الفيلية على الحدود بين ايران والعراق تسمى تاريخياً باقليم حلوان التي ظلت دائماً جزءاً من العراق⁶. وهذه الفرضية وان جاءت لتثبت عراقية الفيليين الا انها تجانب الصواب بعزلها الفيليين عن قوميتهم الاصلية. وقد اثار الماجدي حفيظة الفيليين الذين يعترفون بقوميتهم بردود لم تخلو من القسوة⁷.

الجدير بالذكر ان لورستان تقسم الى لورستان الكبرى والصغرى, والفيليين يعيشون في جزء من لورستان الصغرى جنوب كردستان العراق التي تشمل مناطق من ديالى والكوت والعمارة. ويتناقض هذا مع التصور الخاطئ بان سكان لور الصغرى مهاجرون من عيلام وكرمنشاه الايرانية الحديثة, وان العراق الحديث لا يضم اي منطقة لورية او احداً من اللوريين الاصليين⁸.

اما الدلالة التي تحملها كلمة " فيلي " فتشير الى معاني عديدة منها الشجاع, المقاتل, الفدائي, الثائر, المتمرد, العاصي. واصل تسمية فيلي ياخذ سجلاً طويلاً, فهناك من يزعم ان اصلها مستخرج من اسم الملك العيلامي " بيلي " الذي حكم عام 2670 ق.م. وقد تحول حرف الباء بمرور الزمن وبالنحت اللفظي الى حرف الفاء, ومن هنا يعتبر هؤلاء ان اصل الفيليين من العيلاميين القدماء⁹. آخرون يرون ان التسمية مشتقة من " الفهلوية " وهي لغة الميديين اجداد الفيليين, حتى اطلق عليهم شعب فهلة كما اشار الى ذلك ابن النديم في الفهرست. وكان والي بشتكوه حسين خان اول من اتخذ لنفسه لقب فيلي سنة 1600م واوصى ان ينقش على قبره, اي بعد الف سنة من الاسلام, وهو تعديل لـ " فهلي " بعد قلب الهاء الى ياء¹⁰. لكن هناك من يشير الى ان اصل التسمية هي نسبة الى " فئة علي " ¹¹, خصوصاً اذا عرفنا ان التشيع الكردي يعود الى بدايات العصر الاسلامي كما سنبحث. وهناك فرضيات لا قيمة لها مثل استخراج التسمية من اسم الفيل او من نهر الفيلية في منطقة بهلة...

تختلف تسميتي فيلي ولوري من حيث شموليتها او تفرعها في ايران والعراق. فالتسمية لوري نادرة التداول بين الفيلية في العراق, واذا ما اطلقت التسمية لدى البعض فانها تعني الانتماء الى قبيلة صغيرة من بين صفوف الفيليين في العراق في العراق تعرف باسم " لُرّ ", حيث ان التسمية فيلي محصورة في كردستان ايران في منطقة بشتكوه حيث تسمى بهذا الاسم ولادة هذه المنطقة واطلقوها بدورهم على رعاياهم. في ايران يسمى الكرد الفيليين باسما عشايرهم المحلية ومناطقهم, فهناك اقليم لورستان الذي يسمى بها الكثيرون فضلاً عن اسما قبائلهم المحلية مثل البختياري واللك والمساني وغيرها. في حين تطلق تسمية فيلي في العراق على الناطقين بالكردية اللرية وتفرعاتها وتعد تسمية شاملة لهم. هذا يعني ان اللور تسمية عامة شاملة في

کردستان ايران, وان فيلي لقب فرعي, بينما الحالة معكوسة في العراق حيث ان لوري يعد اسما خاصاً¹².

تقول بعض النخب الاكاديمية بان كلمة (فيلي) هي صفة وليست اسماً لعشيرة او قومية. فهي اطلقت على مجموعة بشرية متعددة القبائل وغير متناسقة كانت تحت لواء ما يسمى امارة لورستان التي كان حاكمها الأخير رضا خان فيلي¹³. وهناك من يرى ان اصل كلمة فيلي مأخوذ من كلمة فلاة – فلات العربية التي تعني الارض المنبسطة, ذلك ان الفيليين الموجودين في المناطق الجبلية في ايران انما كانوا في الاصل من كرد العراق وقد لجأوا الى تلك الانحاء مضطرين بسبب تعرض مناطقهم للغزوات والفتوحات التي قام بها العرب للمناطق السهلية شرق دجلة (مناطق الفيليين التقليدية في العراق) ايام الفتوحات الاسلامية. وهذا التخرج لا يقبله الجميع لتواجد قسم من الفيلية في المناطق الجبلية في كردستان الجنوبي العراقي¹⁴.

واياً كانت التسمية واصلها فان الواقع الحالي هو ان الفيليين من الاكراد وان " اتخاذ تسمية فيلي صفة الشمولية واعتبار اللور في العراق لقباً خاصاً يعد من الناحية العلمية الاكثر موضوعية وتطابقاً مع الحقائق التاريخية, لان كلمة فيلي او بيلى القديمة مرخصة من لقب (فهلوي-بهلوي) الاسم القديم الذي رافق الشعب الكردي منذ العصور الوسطى وايام الساسانيين ثم العرب المسلمين قديماً والمعاصرين لايام الرسول والخلفاء الراشدين والدولتين الاموية والعباسية¹⁵.

تشيعهم

في الوقت الذي يعرف فيه الكرد في العراق بعقيدتهم المتوزعة على المذاهب السنية الاربعة خصوصاً الشافعي [مع وجود اقلية تدين بالمسيحية والايديوية والكاكائية والزرادشتية..] فان اقلية من الكرد هم الفيليون ينفردون عن اولئك بعقيدتهم في التشيع. ومع وجود نسبة من الفيلية في كردستان الآن, الا ان الغالبية تسكن خارجها وفي المدن الشيعية وسط وجنوب العراق. حتى ان بعض كورد كردستان يصفهم بـ " شروكية الكورد " كونهم من الشيعة. كما ان قسماً من الفيليين في كردستان اليوم هم السنة, فـ " كل كردي شيعي هو فيلي لكن ليس كل فيلي هو شيعي " ¹⁶. باحثين آخرين ينكرون هذا التوجه ويذهبون الى ان هناك قبائل شيعية كردية من غير الفيليين مثل البشتوية والبرزكان والجاوانيين والدنابلة والسرناجان¹⁷.

ومسألة تشيعهم تتعدد فيه الاراء, فراي يقول بانهم كانوا على المذهب السني ومن طائفة (اهل الحق) ومن ثم اعتنقوا المذهب الشيعي بشكل طوعي بعد قيام الدولة الصفوية اوائل القرن السادس عشر. وتبلغ نسبة الشيعة بين الكرد اليوم نحو 15% ¹⁸. وما اسهم في التسريع بعملية التحول هذه, الاحتكاك المتزايد بالزوار الايرانيين الشيعة خلال رحلاتهم الى مدن العراق المقدسة وخاصة النجف وكربلاء عبر لورستان الصغرى¹⁹. الأمر الآخر الذي ادى بهم الى اعتناق التشيع هي المحاولات المتواصلة التي كان يقوم بها العثمانيون السنة لاحتلال المناطق اللورية مستعدين عليهم سكان هذه المناطق²⁰.

ومن الباحثين من يذهب عميقاً في تجذير عقيدتهم الى بدايات العصر الاسلامي، فالتشيع الكردي مبكر منذ ذلك الحين. ما يؤيد ذلك هو ما يذكره الحموي عن مدينة شهرزور بين اربل (اربل) وهمدان بان " فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها في وقتنا هذا يقال لها نيم ازراي واهلها عصاة على السلطان.. وبشهرزور مدينة اخرى دونها في العصيان والنجدة تعرف بشيز واهلها شيعة صالحية زيدية اسلموا على يد زيد بن علي، وهذه المدينة مأوى كل ذاعر ومسكن كل صاحب غارة. وقد كان اهل نيم ازراي اوقعوا باهل هذه المدينة وقتلوهم وسلبوهم واحرقوهم بالنار للعصبيية في الدين بظاهر الشريعة، وذلك سنة 341هـ²¹. اي ان تشيعهم قبل العهد الصفوي بثمانية قرون، وكان الى جانبهم بعض موالي عمر بن عبد العزيز، ويبدو ان اهل هذه الفئة من نيم ازراي كانوا من الامويين اللاجئين بعد سقوط دولتهم وناقمين على الشيعة فحدث الصراع والقتل كما ذكر الحموي²². والمؤشر الآخر على قدم تشيعهم هو ما ذكره المؤرخون من خروج عبد الله بن معاوية بن جعفر الطيار على الامويين في عهد مروان فبويح له بالكوفة وغلبه عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ولحق بالمدائن وجاءه ناس من اهل الكوفة وغيرها، فسار الى الجبال وغلب عليها وعلى حلوان وقوس واصبهان والري. واقام باصبهان وعين اخاه الحسن بن معاوية حاكماً من قبله على منطقة الجبل²³.

يذكر الماجدي بان هاشم بن عتبة افتتح ماسبذان (بشتكو) عنوة سنة 19هـ وثار الاراميون بعد الفتح فانقضت ماسبذان مما اضطر حذيفة بن اليمان الى ان يعيد فتحها سنة 22هـ . وبعد اضطهادهم من الامويين وقفوا مع المعارضة بوصفهم من الشيعة، واشتركوا في ثورة المختار وحركة والي سجستان عبد الرحمن بن الاشعث حيث ابدوا مقاومة ضارية لقوات الحجاج. واخذ الفيليون اهميتهم في العصر العباسي الذي اعطى غير العرب اهمية مماثلة بفضل وجود غير العرب في وزارات العباسيين²⁴.

وجودهم في بغداد

يعد وجود الفيليين في بغداد قضية خلافية حالها حال معظم قضاياهم الشائكة. فهناك ضبابية وصعوبة في توثيق استيطانهم الاول في بغداد. فهم من بناء بغداد منذ تاسيسها، وهذا ارفع دليل على دورهم التاريخي القديم. يذكر عماد عبد السلام رؤوف ان اول تجمع للكورد في بغداد كان في محلة الازج (باب الشيخ) التي كانت مكتضة بالسكان. اذ انه لما ذاع صيت الشيخ عبد القادر الجيلاني (471 – 561هـ) في التصوف والعلم، كان عدد من مريديه من الكرد امثال جاكير الكردي وماجد الكردي وغيرهم²⁵. وذكرهم ابن الجوزي في المنتظم في ذكره لحادثة فيضان بغداد ربيع 1062 م واستنتج باحثون من تسمية حي الاكراد عند ابن الجوزي بانها ذات المحلة التي نشأت قرب جامع الشيخ الجيلاني في القرون التالية²⁶.

وتشير الشرفنامه الى ان استقرار الفيليين في بغداد يعود الى أزمنة قديمة عندما حكموها من خلال زعيمهم ذو الفقار نخود بين 1523 – 1529 م. وذكرهم عدد من المستشرقين اثناء رحلاتهم الى بغداد من بينهم الهولندي لينهارت عام 1573، وجيمس فريزر عام 1744. وهذا

الأخير اكد وجودهم في بغداد والعراق في تواريخ بعيدة, ما يعني انهم قطنوا بغداد وغيرها من المدن قبل اربعة قرون, اي قبل وقوع العراق تحت الحكم الصفوي²⁷.

ويذكر المؤرخ التركماني رسول الكركولي الى كرد بغداد الذين عانوا المجاعة عام 1736م, لكنه لا يخبرنا شيئاً عن اصولهم ومهنتهم. الا ان المرجح توطن الفيليين في بغداد على اثر العلاقات التجارية المتنامية بين المدينة والمناطق الحدودية حيث كان اللوريون يعيشون على جانبي الحدود العثمانية الايرانية وليس هناك ما يشير الى استقرارهم في بغداد نتيجة لتطورات عسكرية او سياسية²⁸.

فضلا عن الحركة التجارية, يشير باحثون آخرون الى قضية ساعدت في الزيادة السكانية لفيلية بغداد وهي الهجرة من الريف الى المدينة في النصف الثاني من القرن العشرين على اثر الجفاف الذي حل بمناطق خانقين وبدره وزرباطية ومنذلي, وزيادة المشاريع الصناعية في العاصمة, وعمليات التعريب التي مارسها النظام, وتداعيات الحرب العراقية الايرانية²⁹. لكن هذا الأمر ينفيه الاهالي نفياً قاطعاً, فعندما التقيتهم في حيهم الاصلي بعكد الاكراد (العكد = قطاع) كانوا يزعمون انهم اهل مدينة منذ القدم ولم يعملوا بالزراعة, بل انهم وبدافع التاصيل لهويتهم يقولون ان اسم بغداد ليس عربياً وانما هو تصحيف لكلمتين هما (بغ = حديقة) و (داد) وهو رجل فيلي³⁰. وهذه الكلمة (داد) ما زالت متداولة بين العراقيين وخاصة البغداديين بشكل خاص وتعني الاخ او الصديق. بل هم لا يعترفون بالهوية الفيلية لتلك المناطق لان الفيلي الحقيقي لا ينتسب الى منطقة بل الى عشيرة او يكتفي بلقب الفيلي.

الفيليون والدولة العراقية

" هنا تسكب العبرات " كما هو المثل الدارج في العراق. فما ان يُتداول الحديث حول علاقة الفيليين بالدولة العراقية الا وتتقاطر الهموم والاحزان التي اصبحت جزءاً من ذاكرتهم الجمعية ومن ثم من وجودهم وهويتهم. فلم يخلو دور تاريخي من اضطهاد وقمع للفيليين ادت الى تناقص اعدادهم في العراق وتشتت البقية الباقية في اقطار الارض وضياع لاملاكهم وحقوقهم التي لا تزال قضية معلقة بعد مرور اكثر من عقد على تغيير النظام.

بدأت عذاباتهم منذ القرن التاسع عشر تحت ظل الدولة العثمانية التي ألزمت العراقيين بقانون التجنيد الالزامي وجندتهم كوقود في الحروب التي كانت تخوضها في البلقان لتوسيع رقعة امبراطورية الرجل المريض. دفع هذا الأمر بالفيليين وبعض العرب الى التخلص من التجنيد عن طريق اصابة انفسهم بعاهة او التهرب بطريقة اسهل هي شراء الجنسية الايرانية من القنصليات الموجودة في البصرة والمدن المقدسة³¹. وبعد زوال الدولة العثمانية واحتلال بريطانيا للعراق تم اصدار قانون الجنسية العراقية لسنة 1924 في حكومة عبد الرحمن النقيب. وطبقاً لهذا القانون اعتبر الفيليون ايرانيين³². وقد كرس هذا القانون شرخاً في الجسد العراقي حينما قسم الجنسية العراقية الى نوعين احدهما تبعية عثمانية واخرى تبعية ايرانية, واصبح الفيليون بمثابة الجالية المهاجرة الى العراق مع انهم من اصوله المتجذرة في التاريخ³³.

وباستثناء عهد عبد الكريم قاسم (والدته فيلية الاصل) فان حال الفيليين ازداد سوءاً بعد صعود حزب البعث الى السلطة في انقلاب 8 شباط 1963 الذي شهد التفاف الفيليين حول قاسم وثورتهم ضد البعثيين في مناطق عدة من بغداد وخاصة عكدا الاكراد والكاظمية والثورة. وهذا الأمر اورث صدام واتباعه حقداً دفيناً استمر الى ما قبل سقوط نظامه عام 2003.

مارس البعث شتى صنوف الاضطهاد بحق الفيليين منذ ذلك الحين لم تقتصر على التعذيب والتصفية الجسدية والسجن في ابو غريب ونقرة السلمان, بل تعدتها الى مصادرة الاملاك المنقولة وغير المنقولة والاقصاء من الوظائف الحكومية واستثناء ابناءهم من القبول في عدد من الكليات واقصائهم من الدراسات العليا, وممارسة العنف الرمزي بابقائهم في حقل (الاجانب) في دوائر الجنسية باعتبارهم تبعية ايرانية والذي لا يزال سارياً عليهم. لكن هناك حادثتين تشكلان محورين اساسيين في ذاكرتهم الجمعية وتاريخهم الشفاهي ولن تتناساه اجيالهم على مر الزمن, الاولى هي ما حصل بتاريخ 1980/4/7 عندما اصدر صدام قراراً بتسفير الفيليين (من بغداد خصوصاً) ورميهم على الحدود العراقية الايرانية بعد مصادرة املاكهم³⁴. البعض نجا وتلقته السلطات الايرانية واسكنتهم في مخيمات ولم تمنحهم الجنسية الايرانية, والى اليوم لا هم ايرانيين ولا عراقيين. وقد زودتهم ايران ببطاقة خضراء لتمييزهم. وهؤلاء يُمنع عنهم السفر والزيارات الدينية وحتى زيارة قبور موتاهم في النجف. ولذلك فالاهالي هنا ينظرون بازدراء شديد نحو السلطات الايرانية لممارستها مثل هذه الاساليب اللانسانية ضد اقاربهم. آخرين ماتوا جوعاً او افتقرتهم الذئاب كما اكدوا لي اثناء المقابلات. الحادثة الثانية هي تغييب 22 فيلي بينهم نساء واطفال لم يعرف مصيرهم ولا اماكن جثثهم الى اليوم ما اورثهم جرحاً لا يزال يتقيح وينزف المأ. ولم تقم الحكومات المتعاقبة بعد 2003 بتطبيب هذه الجروح رغم وجود الامكانيات لذلك. وسنرى كيف انهم يحملون صورة سيئة جداً عن هذه الحكومات التي كانوا يأملون انصافها لهم كونها حكومات شيعية. وقد أقيم مؤخراً نصب الشهيد الفيلي كرمز لهؤلاء المغيبين وسوف تخط عليه لاحقا اسمائهم بماء الذهب اكراماً لدمائهم. الغريب ان هذا النصب اقامته الدولة قبل سنوات قرب مزبلة تحت جسر النهضة واستدركت النخب الفيلية الأمر وجمعوا التبرعات لاقامته في مكانه الحالي بساحة بيروت! وكان يوماً مشهوداً بالنسبة لهم استذكروا فيه الأهم وشهدائهم³⁵.

القسم الثاني

البحث الميداني

لاجل الحصول على معلومات صحيحة ودقيقة عن اصل الفيليين ومعاناتهم ووضعهم الحالي ومستقبلهم, كان عليّ اتباع خطوات تمهيدية اعتبرت مركزية قبل البدء بتوزيع استمارات الاستبيان, وهي المقابلة المعمقة مع بعض النخب (الاكاديمي د. حسين قلي خان, وعضو مجلس محافظة بغداد فؤاد علي اكبر, والاستاذين فريدون الفيلي ورياض الفيلي) والحقيقة ما وقفت عليه من معلومات منهم كانت مفيدة جداً للارتكاز عليها في الاطارين النظري والميداني. ثم الجماعات البؤرية وكانت على ثلاث مراحل: الاولى تضمنت 8 افراد واستغرقت اكثر من 4 ساعات يوم 2016/12/10, والثانية يوم 2016/12/17 وتألفت من 7 افراد لساعتين, والثالثة يوم

2016/12/25 لنفس المجموعة واستمرت ثلاث ساعات. فضلا عن حوارات مع البعض منهم كانت ذات فائدة عظيمة مثل شيخ الفيليين سمير محمد ربكي ومعاونه حازم رسول، وجميعهم اكرموني بلطفهم ومعاملتهم الطيبة رغم اعترافهم انهم لم يقولوا كل الحقيقة.

البحث الميداني يدور حول الهويتين الاجتماعية والثقافية للفيليين، وصممت الاستمارة بأسئلة اعتبرها البعض مستفزة ومحرجة كونها تتساءل عن الخيارات بين المذهب والقومية. لكني كنت مضطراً لها لإضاءة الطريق نحو بروز احدى الهويتين على حساب الأخرى او تعادلتهما، مما اوقعتني في حرج مع البعض الذي ترك ملئ الاستمارة، والبعض لم يجب على عدد من فقراتها ما اضطرني لاهمال مثل هذه الاستمارات وانقاص العينة. لكن الاجابات التي حصلت عليها من الباقين تكفي لايضاح تصوراتهم الحالية حول الهويتين. العينة المختارة كانت قصدية ووزعت في المنطقة الاصل اي عكد الاكراد في باب الشيخ (44 استمارة) ثم المناطق (جميلة 37 , الكرادة 4 , شارع فلسطين 49 , مدينة الصدر 3 , الشعب 8, الزعفرانية 25 , بغداد الجديدة 6 , مناطق متفرقة 24) فيكون المجموع 201 استمارة وزعت لمدة اسبوعين على فترات متباعدة في شهري تشرين الثاني وكانون الاول.

اما لماذا هذا العدد لكل منطقة فهو حسب المخبرين الذين يميزون بين الفيلي وغيره، وحسب رغبة الأسر نفسها في الاجابة لان البعض كما اسلفنا رفض التعاون. وكانت هذه الاعداد هي القدر المستطاع الذي استفدنا منه مع اقرار بعض الفيليين بوجود عوائل متفرقة في بغداد لكن من الصعب الحصول على عناوينها كما ان البحث عنها قد يضعنا في مشاكل.

الهويتان الاجتماعية والثقافية

تشير الهوية الاجتماعية الى تماثل الفرد مع الآخرين سواء في العرق، النوع، القومية، الدين (وهذه تسمى الجماعات الاجتماعية الكبرى)، او يتماثل معهم ضمن الجماعات الوسطى كماماكن العمل والمجتمعات المحلية، او الصغرى كالاصدقاء والأسر. وفي جميع الحالات تمنح الهوية الاجتماعية للأفراد الاحساس بالذات (تصور الذات) التي تركز على رؤيتهم لانفسهم ككيان يعكس اولئك الذين يتماثل معهم³⁶. اي انها الفهم الذاتي للفرد كعضو في جماعة، وهي التصنيف الادراكي/المعرفي الذي يشمل الترابط العاطفي والقيمي. على المستوى المجرد والبسيط تعد كعلامة للخبرة النفسية، وعلى المستوى المعقد كعضوية في القومية والدين والاثنية³⁷. وحسب تاجفيل ومن تلاه من منظري الهوية الاجتماعية فان السلوك بين الجماعات يختلف نفسياً عن السلوك بين الافراد وهذا ما يعطي تصوراً حول الانحياز والتمييز والتنافس كتفاعلات وظيفية تكيفية لسلوك الجماعة³⁸.

ولنظرية الهوية الاجتماعية ثلاث ابعاد هي:

1- يصنف الفرد نفسه ضمن فئة اجتماعية ويجعل ذاته والفئة التي ينتمي اليها متماتلتين، لان هذه الفئة تضع الفرد في منزلة اجتماعية معينة.

- 2- تحدد الانتماءات الاجتماعية هوية الفرد الاجتماعية كجزء من مفهوم الذات, حيث يستمد الافراد تقديرهم للذات من خلال هويتهم الاجتماعية.
- 3- ينتج التمييز والتعصب من الاختلافات بين الجماعات, ومفهوم الذات يعتمد الى حد ما على كيفية التقييم النسبي للجماعة الداخلية بالنسبة الى الجماعات الأخرى³⁹.

اما الهوية القومية / الثقافية فينظر اليها على انها هوية جماعات ثقافية يكون اعضائها متوحدين, ان لم يكونوا منسجمين, حول ذاكرة تاريخية واساطير ورموز وتقاليد مشتركة. وتشتمل على مفهوم الوطن او الحيز التاريخي⁴⁰. انها تمنح الفرد بالانتماء belonging الى بلد او شعب واحد له تقاليد ثقافية مميزة. ولذا فهي من الناحية النفسية تفهم ك (ادراك الاختلاف) والشعور بالـ نحن والـ هم⁴¹.

نود قبل البدء بتحليل نتائج الدراسة الميدانية ان نطرح ملاحظتين : الاولى ما يخص مفهوم الانتماء الوارد في نظرية الهوية الاجتماعية والذي يستخدمه علماء الاجتماع والنفس الاجتماعي على حد سواء وهو يعني الارتباط بالجماعة معنوياً لا دموياً. لذا سنستخدم مفهوم الولاء ليعبر عن العضوية والارتباط بالجماعة معنوياً والقائمة على التأييد والمناصرة مثل الولاء للحزب او المذهب. ويتميز الولاء بالتغير حيث يمكن للفرد ان يغير ولائه, لكن من الصعب عليه ان يغير من جنسه واثنيتيه وقوميتيه وعشيرته وهذا ما يسمى بالانتماء الذي يعني العلاقة بين الفرد وجماعته بالارتكاز الى مفهوم الدم والعرق والنوع وتتميز بالديمومة والثبات(النسبي)⁴². يشير هول الى ان " الهوية الثقافية تتميز بالرسوخ والثبات وضمان عدم تغير (الوحدة oneness) او الانتماء الثقافي التي تشكل الاساس لكل الاختلافات الظاهرية"⁴³. وفي الوقت الذي تتولد فيه العصبية من الانتماء (كما عند ابن خلدون), فان التعصب يولد من الولاء. وهذا التقسيم اجرائي لاغراض البحث لان مفهوم الانتماء في علمي الاجتماع والنفس ليس مغلوطاً بقدر ما انه يلتبس او يمتزج مع مفهوم الولاء. كما انه لا يمنع ان يكون المفهوم مرتبطين بشدة, فالفرد ينتمي لقومية ما ويواليها ايضاً⁴⁴.

الأمر الآخر هو ان الهويتين الاجتماعية والثقافية يتبادلان المفهوم حسب تغير المكان والمجتمع. فأن تحمل الجماعة هوية اجتماعية مهيمنة في مجتمع, قد تتحول الى هوية ثقافية في مجتمع ثانٍ. مثال على ذلك, العراقي يعتبر ذو هوية اجتماعية لكونه يتماثل مع الآخرين من أبناء بلده, لكنه سيعتبر ذو هوية ثقافية اذا غادر الى بلد اجنبي لكونه متميزاً عنهم بقوميتيه ودينه وتقاليدته. بكلمة اخرى تعد الهوية الاجتماعية هوية تطابق او تماثل بينما يحصل العكس مع الهوية الاثنية والقومية (الثقافية) التي تعد هوية اختلاف. وهذا يندرج ضمن مفهوم التغير الاجتماعي في نظرية الهوية الاجتماعية, وهو يختلف عن مفهوم التغير في النظرية الاجتماعية. ولهذا (التحول) المفاهيمي بين الهويتين له ما يبرره لان عناصر كلا الهويتين تشكلان قاسماً مشتركاً مثل الدين والقومية والاثنية⁴⁵.

في مجال بحثنا يتماثل الفيليين (في بغداد) ضمن جماعة داخلية اكبر هي الشيعة ومحددة ضمن الولاء للمذهب اي الهوية الاجتماعية. اما الجماعات الخارجية فهي السنة العرب لاختلاف المذهب, وكون الفيليين اقلية قومية / كردية سيكون الاكراد في كردستان بالنسبة لهم جماعة خارجية. ولو انهم رحلوا الى اقليم كردستان, كما يرغب البعض منهم, لتغير المفهوم تماماً

ولانقلبت هويتهم القومية الثقافية الى اجتماعية لانهم سيتمثلون مع باقي الكرد في قوميتهم, بينما تتحول الاجتماعية اي الولاء للمذهب الى هوية ثقافية لان غالبية الكرد على المذهب الشافعي.

شيعة كرد

اثمرت نتائج الحقل الميداني عن ميول متضادة لدى معاينتها للوهلة الاولى لكنها تتجمع بالنهاية في الاستقطاب والمركزية المتجهة نحو المذهب بنسبة تتفوق كثيرا على القومية. فهم يفضلون المذهب الشيعي على القومية الكردية في اغلب الاسئلة الخاصة بالخيار الحرج بينهما وكالاتي:

1- تمثل الميل نحو الشيعة العرب في بغداد بنسبة (72%) مقارنة بنسبة (22%)⁴⁶ للكرد في كردستان, بينما حاز ميولهم نحو السنة العرب على اقل نسبة (5%). والسبب وراء كثافة الميل نحو الشيعة توضحه نظرية الهوية الاجتماعية عندما تفترض ان الجماعة الضعيفة تسعى الى الاندماج في الجماعة المسيطرة, وهذه الاستراتيجية تتطلب تغييرا ثقافيا وسيكولوجيا جذريا⁴⁷. يتضح هذا الضعف من اجابات الفيليين الذين يعتقدون انهم مشتتين بنسبة (84%) وان سبب التشتت هو السياسيين بالمرتبة الاولى (46%), ثم المذهب والعشيرة وخلافات الأسرة. وهذه الأخيرة اوضحتها الجماعة البؤرية بالقول ان العلاقات الاسرية والعشائرية قائمة على قطيعة الرحم (كطعية). لكل ذلك نجد هذا الميل المتدفق نحو الاندماج مع الشيعة العرب في مواطن اخرى مثل الزواج من الشيعة (70%) والرغبة بقراءة تاريخ الشيعة (36%) والمشاركة في تطوير المذهب (61%), والتصويت للفيليين في القوائم الشيعية (71%) على حساب القوائم الكردية والسنية⁴⁸. وبرز الرموز التي لم يجدوا حرجا في اختيارها كان مرجع التقليد في النجف (65%) بينما لم تحصل الشخصيات الكردية كالطلباني والبرزاني الأب بل وحتى الزعماء الدينيين الشيعة وسياسيهم سوى نسب بسيطة.

ان هذا الانصهار في الجماعة القوية (الشيعة) جعلهم يتعصبون للمذهب بشكل اكبر من القومية⁴⁹. يتبين ذلك من غضب الفيلي اذا وجه شخص ما اهانة للمذهب (55%) مقابل اهانة القومية (43%). بالمثل نجد ذات التعصب نحو الشيعة العرب (71%) اكثر من الكرد. ولهذا يشعرون بالانسجام والامن بعيدا عن القلق والاعتراب الذي قد تفرضه الجماعة المهيمنة, بل ان هناك احساساً بالمساواة في العلاقات المباشرة (80%) مع الشيعة بالشكل الذي لا يشعرون به وهم في كردستان (52%). اذ عبروا في حواراتهم عن نظرة الكرد لهم في كردستان لا تخلو من الدونية, اذ يعتبرونهم كـ "عرب" لا كرد لان لهجتهم الكردية ليست نقية تماما لاختلاطها باللهجة البغدادية بسبب استعمالهم اليومي لها. ليس هذا وحسب بل يعرفونهم بـ "الرافزي = الرافضي" وهي وصمة معروفة تطلق على الشيعة⁵⁰. وهذا ليس راي الجميع لان هناك نسبة من الاجابات تنظر لكرد كردستان بشكل مختلف وترى انهم متساوين معهم (52%) وتشعر بان الشيعة اقل منزلة منهم (4%) ويهمهم ان يكون تاريخ الفيليين مع تاريخ كردستان (17%) وان مستقبلهم الافضل هو مع الاقليم ولذا يفضل هذا البعض الرحيل الى الاقليم حال استقلاله عن المركز (22%).

2- صورة الفيلي نحو الشيعة ليست كما نتصورها نقيه من الشوائب, لان ذلك يعتمد على شخصية الفيلي التي ما زالت تنسم بالخوف من الجماعة المهيمنة. فرغم الاجابات المؤكدة لميولهم نحو الشيعة الا انهم بذات الوقت عبروا في لقاءاتي معهم عن ميول متضاربة. فهم لا يزالون يتذكرون ان بعض الشيعة اشتروا املاكهم بثمن بخس بعد قرار صدام تسفيرهم لايوان وعرض املاكهم للبيع ولم يشترها اهل السنة. والى اليوم يرفض هؤلاء الشيعة تسليم العقارات لهم حتى بعد ان عوضتهم الحكومة ببدايات نقدية لقاء تسليمها للفيليين. ومن استلم التعويض يطالب الفيليين ببديل نقدي آخر كي يخلي المنزل مستغلاً انعدام الامن والظهير المسلح من المليشيات, او يقوم بتخريب العقار قبل ان يغادر. هكذا تتولد حسرات كبيرة لدى الفيليين عند تذكر ضياع تلك الاملاك العريضة التي كانوا يحوزونها كونهم من الطبقة الثرية آنذاك, وحسرة اكبر على اخوانهم في المذهب بمثل هذا التعامل. ذكروا انهم اصبحوا " جسر " عبّر عليه سياسيو الشيعة والكردي, واليوم هم نادمين لاعتمادهم على هؤلاء السياسيين بعد 2003 لانهم اهملوا قضيتهم واهتموا بمصالحهم. ولو اعتمدوا على سياسيو السنة لتغير الحال. ولعل وصف قضية الفيلية بانها " مثل صخرة سيزيف كلما رميتها للخلاص عادت الى مكانها السابق " هو ابلغ تعبير عما تعانيه هذه الجماعة⁵¹.

من جهة اخرى يقرون بان البعض الآخر من الشيعة وهم الشروكية (شيعة الجنوب الذين استوطنوا بغداد منذ الاربعينات) وقفوا الى جانبهم ابان الحرب العراقية الايرانية, بينما قام عدد من المنذلاوية بالتبليغ عنهم وشراء املاكهم. وهم اليوم لا يعترفون بفيلية المنذلاوي (وحتى الخانقيني), ويكررون دائماً هذه العبارة: اسأل المنذلاوي هل انت فيلي وسيجيبك بالنفي, لكنه سيقول فيلي اذا ما وفر له لقب الفيلي منقعة ذاتية. وهذا ما لا يروق لاهالي مندلي وخانقين الذين يعتبرون انفسهم فيليين لا يقلون اصالة عن فيلية بغداد. وهكذا كانت حالة الشتات Diaspora التي جاءت بنسبة عالية من الاجابات معبرة تماما عما تشهده هذه الجماعة. يقول هول عن علاقة حالة الشتات بالهوية: ان الهوية تظل في حالة انتاج ولا تكتمل ابداً, وتبقى في حالة من الصيرورة process والبناء⁵².

ان الاضطهاد والشتات الذي عاناه الفيليون يشبه كثيراً عملية الأريانة Aryanzation التي مارسها الالمان ضد اليهود بين عامي 1933-1938. كما ان قضية الإبادة الجماعية لم تنفذ فقط من (الاعلى) لكن ايضا على المستوى المحلي اي من (الاسفل), بالتعاون مع قطاعات كاملة من الشعب العراقي. لذا من المهم ان نسأل لماذا يتم استهداف جماعة معينة, وان نفهم السياسات القانونية المتبناة على المستوى المحلي لانجاز هذا العنف. أضف لذلك ان هذه الجريمة تعطي رؤية فريدة حول المجتمع العراقي وتعاونه مع النظام⁵³.

من خلال الحوارات المكثفة معهم وجدت ان بوصلتهم متعددة الاتجاهات, انهم " ضائعين " حسبما قال احدهم واتفق معه الباقيون. وسبب ذلك انهم مشتتين بين المذهب والقومية. واستغل سياسيو الشيعة والكردي هذا الأمر لاغتنام الفيليين الى جانبهم دون ان يقدموا فائدة تذكر. ولم يتجنبوا تأنيب ذواتهم على حالة الشتات التي يعيشونها, اذ اجتمعوا في الحلقات البورية الثلاث التي أجريت معهم على ان من قتل قضيتهم هم انفسهم. فلم يظهر الى الآن قائد قوي يجمعهم ويدافع عن قضيتهم, وعزوا ذلك الى التشتت الذي يبدأ من الفرد نفسه ثم الأسرة صعوداً الى الجماعة

ككل. الفرد يجد نفسه مشدوداً نحو المذهب تارة ونحو القومية تارة اخرى, كما يتقلب الكثير منهم في ولائه الحزبي والديني. وهناك أمر مهم هو ان الغالبية من الفيليين لا يعرفون الدين الا في شهري رمضان (الصوم) ومحرم (المواكب الحسينية). بعبارة اخرى هم طقوسيين لكن ليسوا دينيين. وممارسة الطقس في رمضان ومحرم رسالة من الفرد الى الجماعة بأنه لازال " موالياً " وبالتالي عضواً بينهم.

داخل الأسرة نجد تشتتاً وربما تفككا غريباً. اذ ينقسم اعضاء الأسرة الواحدة بولاءاتهم بين تأييد الاحزاب الشيعية والكردية والشيوعية.. وينشب الخلاف بين الاخوة في احيان عدة بسبب الانحياز والتعصب للاحزاب رغم انهم ليسوا اعضاء فيها. يعزى هذا الانقسام الى طبيعة الأسرة الفيلية وعلاقتها مع بقية الأسر, لان السمة المميزة كما اسلفنا هي قطع الارحام, فيندر ان تجد أسرة متلاحمة ينسجم فيها الاخوة مع بعض, وهم يتحاربون لاتفه الاسباب وتنشب القطيعة وتستمر لفترات طويلة. ولا يقتصر الأمر على العامة منهم بل يتعداه الى المثقفين واصحاب الشهادات. وهذا الأمر ينشأ من شخصية الفيلي التي تمتاز بالكبرياء والانفة لانهم يتناسلون من طبقات برجوازية او ثرية اغنت العراق في العقود المنصرمة.

وما يخص الجماعة نفسها فانها مؤلفة من عشائر وافخاذ وبطون داخل العراق, وكل عشيرة عبارة عن وحدة مستقلة لا يجمعها رابط مع بقية العشائر. والمشكلة التي يصعب حلها اليوم هي انضمام عدد كبير من الفيليين في العشائر العربية وسط وجنوب العراق كالسواعد وربيعة والبيضان.. بسبب خوفهم من الاعتقال والاعدام زمن النظام السابق. فانظموا مع العشائر العربية (ما يسمى الجرش) كي يأمنوا على انفسهم وابنائهم. وهم اليوم يرفضون التحلي عن هذه العشائر إما خوفاً من عودة صدام آخر او لتعودهم على هذه الحال, يضاف اليها رغبة تلك العشائر ببقائهم لتوسيع رقعة العشيرة الواحدة. وهذا الخوف ادى بنسبة منهم الى رؤية متشائمة او ضبابية لمستقبل الفيلية (19% , 19% اي 38%), بينما كان المتفائلين بمستقبل جيد (49%).

يروى السيد حازم رسول مساعد رئيس العشيرة حادثة معروفة لديهم تبين مدى تشتتهم. اذ قام بجمع 2300 فرد من كافة العشائر كي يتوحدوا تحت قيادة رئيس واحد, وما ان اجتمعوا حتى بدأ بعضهم يذكر الآخرين بالعداوات والمشاكل القديمة فتأجج الخلاف والعداء بشكل اكبر وانفرط عقد الاجتماع وانهارت الفكرة. ورغم الانقسام العشائري وانعدام الوحدة والانسجام بينهم, الا انهم مسالمين لا يبحثون عن المساومات والفصول العشائرية الا في النادر, لا لضعفهم بل لسجيتهم في التودد والتسامح. ففي اليوم الذي جلست معهم كانوا مجتمعين لجمع دية يدفعونها لعشيرة كنانة اثر مشكلة قام بها احد الفيليين. مقابل ذلك هم يأخذون من اخذ الفصل / الدية, يقول شيخهم باننا نقبل بالفصل ثم نوقفه. يعزى ذلك ايضاً الى كبريائهم وماضيهم الذي يشكل هويتهم. فهم أبناء أولئك الاثرياء الذين يعطون للغير ولا يتلقون منهم. لكنهم يأخذون دية المقتول والمجروح وغيرها من الحوادث الكبيرة.

وهم يمارسون العنف ضد من يحاول ابتزازهم او استغلال ضعفهم خصوصاً من الاحزاب السياسية. فقد قامت احدى القوات التابعة لحزب شيوعي باجراء لقاءات معهم ثم تبين ان اللقاءات ستكون لأجل برنامج يصب في مصلحة رئيس الحزب. فما كان من رئيس العشيرة الا ان ذهب للقتاة برفقة عدد من الفيليين وهدد بحرق المكان اذا لم يتم الغاء التصوير. وبعد مفاوضات مع

رئيس الحزب وجددهم جادين وأمر بالرضوخ لطلبهم. وحصلت حادثة مشابهة في اجتماع لاحد الاحزاب الكردية التي ارادت ضمهم الى جانبهم حيث نشب العراك معهم. وفي احتفال نظمه الحزب الشيوعي لتكريم شهداء حلبجة, اعترض شيخهم على عدم ذكر شهداء الفيلية وانسحب من الحفل وافرغ نصف القاعة بعد ان تجادل مع الشيوعيين بانهم سبب من اسباب مأساة الفيليين لانهم قدموا دماء ابنائهم في سبيل الحزب دون ان يقوم الأخير بخطوة واحدة تخدم قضيتهم.

3- رغم اعتزازهم بقوميتهم لكنهم لا يرغبون ترك بغداد والرحيل عنها الى كردستان حتى لو اصبحت دولة مستقلة كما تبينه النسبة الأكبر منهم (78%). الاسباب التي طرحوها تعود الى عناصر ذات اهمية في ترسيخ هويتهم الاجتماعية دون الثقافية. فتاريخ الفيلية متجذر في بغداد وما زالت بعض البيوتات القديمة شاخصة. والناس القدماء الناجين من بطش البعث واجيالهم المعاصرة يعيشون اليوم وسط الشيعة والسنة العرب في عكس الاكراد, وكان هناك " روحاً " مسيطرة تمنعهم من الرحيل.

اتضح هذا الميل للاستقرار في بغداد عندما عرض عليهم احد الاحزاب الكردية ان يتركوا العاصمة ويبيعوا ما تبقى من املاكهم مقابل ان يمنحهم عقارات في كردستان باسعار مريحة وبالتقسيم. لكن الفيلية رفضوا, بل طرحوا على الحزب عرضاً معاكساً وهو ان يقوم الحزب بشراء عقارات يملكها الاهالي العرب القريبين منهم كي يسكنوا فيها الفيليين المتوزعين في مناطق بغداد, لكن الحزب رفض هذا العرض. بالمثل هم ينتقدون الحكومة ويعتبرونها مقصرة بحقهم لان مسألة الجنسية والاملاك المستلبة ما زالت قضية تدور في اروقة الدوائر الحكومية. لذا نجد ان اهمال حكومتي المركز والاقليم لقضايا الفيليين قد حاز على النسبة الأكبر في الاجابات (59%)⁵⁴. فرغم صدور حكم المحكمة الجنائية العراقية العليا عام 2010 باعتبار ما حل بالكورد الفيلية جريمة إبادة جماعية و صدر قرار عن مجلس الوزراء العراقي في نفس العام بازالة الاثار السيئة التي تترتبت على قتل و تهجير الكورد الفيلية, لكن لم يجد الفيليون اية تحرك نحو الاعتراف بهم كعراقيين اصلاء. فحقوقهم مهمشة ووثائقهم واموالهم لم تعد اليهم, وما زالت المؤسسات الحكومية ببغداد تتعامل مع قرارات النظام البعثي السابق والسارية المفعول في الداخل وفي السفارات العراقية ويعاملون كما في السابق بانهم من التبعية الايرانية⁵⁵.

4- يتماهى النظر الى الطائفة مع النظر الى الحكومة كونها تمثل الثقل الشيعي ونجد ذلك واضحاً من الاهتمام بقضايا الفيليين. فرغم ان النسبة الأكبر هي الإهمال من قبل الحكومة والاقليم كما اوضحنا, الا ان النسب الأخرى الأقل تشي باهتمام الحكومة اكثر من الاقليم (27% , 14%). ويقف الفيليون مع الحكومة ايضاً اذا تطور الخلاف مع الاقليم (76%) والانخراط في صفوف الحشد والجيش (81%) دون البيشمركة⁵⁶. وهم يفضلون الشيعي العربي على الكردي في المنافسة على الانتخابات (69% , 31%). فمن بين 100 بوسنر دعائي للفيلية في انتخابات 2014 كان هناك 99 منها مذهبي التوجه⁵⁷.

تتحدث نظرية الهوية الاجتماعية عن استراتيجيات الجماعة الضعيفة للنهوض أمام الآخرين وهي الابداع. اي ان الجماعة تقارن نفسها بغيرها من الجماعات وتبني ابعاداً جديدة لم تستخدم من قبل لتصبح لديها فرصة كبيرة لتعريف نفسها بشكل ايجابي⁵⁸. فالفيليون يعتزون بانجازاتهم حققوها

خلال العقود الماضية وينذكرون بفخر انهم الاوائل في كثير من الاعمال. فأول مدارس أسسوها باسم مدارس الفيليين عام 1946 وأول حسينية في الحلة عام 1800 وأول من استعمل الثلجة والهاتف والساعة, وأول من أكل باواني الذهب, وما زالت بعض العمارات التجارية والسكنية شاخصة تشير اليهم. يذكر الكاتب جلال الجصاني حول دور الفيليين في نهضة بغداد بانهم الاوائل في اصدار سندات العقار في الدولة العثمانية يعود بعضها لسنة 1860 في عكدا الاكراد, ومن اقدم الحسينيات حسينية الاحمدي 1921 في باب الشيخ وأول مقياس ماء في بغداد يحمل رقم 1 , وأول وثيقة خدمة عسكرية باسم الفيلي احمد طهماز عوض, وأول سائق قطار مجيد الفيلي عام 1936⁵⁹. والفاعلية الاكثر شهرة ونشاطاً هي عملهم في التجارة عندما كانوا (وما يزال البعض منهم) يملكون المحلات التجارية في حي جميلة حيث يسكنون الآن, وفي الشورجة وهي قلب العراق الاقتصادي. ولإخلاصهم في العمل لم يكن اليهود الذين امتلكوا ناصية العراق الاقتصادية يتقون الا بهم. وكانوا من اغنى اغنياء بغداد, حتى ان ثرياً منهم اسمه جاسم ناريمان كان يملك 500 منزل عدا باقي الاملاك وكان يمول المقاتلين الكرد واعدمه النظام لهذا السبب وصادر جميع ما يملك. ويعلل محمد احسان سبب انتقاء الفيليين وقمعهم الى نشاطهم التجاري وادارتهم لعملية تصدير البضائع العراقية الى البلدان الاخرى⁶⁰. ما يؤكد ذلك ان هؤلاء التجار لقوا حتفهم على يد اخوي صدام وطبان وسبعاوي الحسن, كما تعرضوا للابادة على يد علي كيمياوي في وقعة حلبجة⁶¹. ويفخرون كذلك بانهم اصحاب امارتين حكمتا العراق, الاولى بين 1524-1529 م على يد ذو الفقار خان والثانية بيد كريم خان زند بين 1750 – 1779 م. وكان امير لورستان غلام رضا خان منافساً لفیصل الاول على عرش العراق في عشرينات القرن الماضي⁶².

وتحت عنوان الابداع فان مثل هذا التفكير ينبئ عن ما يسمى بالتميز السلبي, ويعني ان الجماعة ذات المكانة المنخفضة تسعى لتقليل الفروق مع الجماعات ذات المكانة المرتفعة وتختار نواح معينة لتكون وجهاً للمقارنة⁶³. والفيليون يدركون جيداً انهم اقلية سواء على مستوى المذهب او القومية. والاقلية في حالة ضعف ويحتاجون الى مصدر قوة يقوم جزءاً من ضعفهم ويعيد الاعتبار لمكانتهم ويرسخ هويتهم كمكون اصيل. وانجازاتهم في الماضي يضاف اليها التضحيات التي قدموها تعتبر من مصادر تدعيم الهوية الاجتماعية ومصدر فخر يقارنون به انفسهم مع الجماعات المهيمنة. هكذا يجدون ان نصب الشهيد الفيلي في شارع فلسطين (واحدة من اكثر مناطق سكناهم) رمزاً لتضحياتهم من جهة ورمز لوجودهم ككيان حي(50%), بمعنى آخر يعد مصدر لقوتهم / هويتهم باعتبارهم جزءاً من العراق. واعتبره الآخرون رمزاً للامهم او انتصاراً لهم على نظام البعث والحصول على الحقوق. بل اعتبره البعض كمنار يحجون اليه للالتقاء عنده وتذكر الاوجاع. يقول احد الاكاديميين بان عدداً من الفيلية لديه تقليد او طقس يمارسونه كل يوم جمعة في ارتياد النصب الذي اصبح كحائط المبكى تزوره النساء اللاواتي فقدن ابنائهن (22 الف شهيد مغيب) ويكيين عنده. آخرون تحدثوا بسخرية لاذعة ان من الافضل اقامة النصب في طهران لان الفيليين في العراق ما زالوا اجانب !

5- حصلت الاجابات عن تداول الجماعة لقصص الفيليين (التضحيات والشهداء وماضيهم المشرق) على (56%) والبعض يذكرها قليلا (34%) وهو أمر طبيعي لجماعة تعرضت للعذاب طيلة هذه الفترة. فهم لا ينسون بظلمهم سفير غلام الذي رمى قنبلة في

الجامعة المستنصرية لقتل وزير الخارجية طارق عزيز والذي كان ذريعة لممارسة الاضطهاد على الجماعة باكملها⁶⁴. وما زالت الذاكرة الجمعية طرية في اختزانها لعذاب القمع والتهجير الذي مورس ضدهم (75%)، خصوصا عقدي السبعينات والثمانينات. وقد استحكمت عقدة الاضطهاد لديهم منذ ذلك العهد بشكل يفوق الشيعة العرب. يقولون انهم اكثر فئة تعرضت للظلم منذ استلام البعث للحكم سنة 1968 والى اليوم لان مشاكلهم ما زالت عالقة، وحتى ان تمثيلهم البرلماني معدوم تماما⁶⁵. والحقيقة ان قصصهم مؤلمة حول الماضي الذي يشكل جزءاً متصلاً في ايامهم الحاضرة بل جزءاً من هويتهم الاجتماعية كمظلومية يتقاسمونها مع الشيعة والكردي. يستوحى جويل كاندوا مفهوم " إناء الدموع " كمجاز لفهم الماضي المؤلم لجماعة تتقاسم العذاب المشترك⁶⁶. ولذا فانهم يأملون بتمثيل برلماني وحكومي لاحد الفيليين (82%).

6- انجازاتهم اصبحت موضع فخر واعتزاز من قبل كتاب ومفكري الفيلية. فلا يوجد كتاب الا ويزخر بما حققوه وقدموه للعراق من ابطال وقادة في الفن والثقافة والسياسة. في ثورة العشرين يبرز اسم حمزة الاحمد من قضاء الهاشمية التابع للواء الحلة، وسليمان من النعمانية، وفي الادب نجد اشهر روائي عراقي فيلي الاصل هو غائب طعة فرمان فضلا عن عبد المجيد لطفي وكامل البصير، والشعراء مثل بلند الحيدري وحسين مردان. وأسسوا في العهد الملكي جمعية المدارس الفيلية والنادي الرياضي الفيلي وكلها رفدت العراق بعدد من قادة الفكر والرياضة⁶⁷. كما ان اول قاضية في العراق والوطن العربي فيلية الاصل وهي زكية اسماعيل، ومن منا لا يعترف بالمعية احد رواد النقد الادبي في العراق وهو مصطفى جواد وشاعرية محمد صدقي الزهاوي والفنانين رضا علي وصلاح عبد الغفور وجلال خورشيد⁶⁸. وكان لهم دور بارز في تأسيس عدد من الاحزاب التي ما زالت متنفذة لكنها لم تعترف بفضلهم، كدورهم في تأسيس الحزب الشيوعي والديمقراطي الكردستاني حيث عقد اول مؤتمر للحزب الديمقراطي الكردستاني في 1946/8/16 في بيت يعود للكردي الفيليين في بغداد، وكان ابرز قادة الحزب جعفر محمد كريم الفيلي وعبد الحسين الفيلي ومحمد صادق موسى وجعفر صادق. وقدموا مساعدات هائلة للثورة الكردية منذ اندلاعها في ايلول 1961 ولغاية انقلاب شباط عام 1963 حيث بدأت مسلسل طرد وابادة الكرد الفيليين لانهم ساندوا الثورة الكردية بالاموال والكوادر الفنية والسياسية ولانهم ساندوا الحركة الديمقراطية العراقية⁶⁹. كما ساهموا برفد الاحزاب الدينية الشيعية وخصوصا حزب الدعوة منذ تاسيسه نهاية الخمسينات من القرن الماضي بالعديد من المؤيدين.

لكن اثرهم السياسي الأكبر كان في الحزب الشيوعي حتى يبالغ احدهم ويقول بان كل الفيليين شيوعيين بحيث ان عكدا الاكراد كان يسمى موسكو الصغيرة، لان الفيليين كانوا شيوعيين. والسبب في شيوعيتهم يعود الى انهم من الفئات المتعلمة وكانوا اول من ادخل ابنائهم الى المدارس والكليات. وصل عدد الفتيات في الكليات الى 124 في الاربعينات في الوقت الذي كانت الفتاة البغدادية تُمنع من دخول المدرسة، فضلا عن الذكور في مجالات علمية وفكرية مختلفة. كل ذلك سهل من تحزبهم للشيوعية لان الأخير كان حزب الطبقة المثقفة، والفيليين كما اسلفنا يقولون عن انفسهم بانهم اهل مدينة، وكان الحزب الشيوعي قد ارسى قواعده في مراكز المدن اكثر من الارياف⁷⁰. ولذلك يتذكرون

فتوى السيد محسن الحكيم ضد الشيوعية بمرارة لان حزب البعث استغل هذه الفتوى لآبادة الشيوعيين ومنهم عدد كبير من الفيليين. وكرّد فعل قام الفيليون بانتفاضة ضد حزب البعث في الانقلاب الاسود 8 شباط 1963. فهم الوحيدون الذين قاوموا البعثيين ورموا بانفسهم الى المحرقة. وحقد نظام صدام لم يكن لكونهم كرد شيعة وحسب بل لانهم ثاروا ضد البعث في تلك السنة وبقي الحقد متواصلاً حتى تم تفسيرهم وابدانهم في سبعينات وثمانينات القرن الماضي⁷¹. واليوم قل الميل نحو الرموز الشيوعية (10%) بسبب الحماس الديني بعد 2003 الذي طغى على نفسية الجماعة بحيث اصبح الرمز الديني (مرجعية النجف) هي الاكثر حظوة (65%)⁷². والمثير ان العقيدة أثرت حتى على الفيلي الشيوعي المعاصر بحيث وجدت بعض الشيوعيين لا يجد حرجاً في ممارسة الطقوس الدينية في الصوم والصلاة، والمشاركة في الشعائر الحسينية يوم عاشوراء في موكب الفيلية بالكاظمية وهو من اقدم المواكب الحسينية في بغداد. وهناك تقليد يوم عاشوراء يمارس في هذه المدينة وهو ان موكب الفيليين يجب ان يكون اول المواكب الداخلة وأول من يقوم بالطقوس تليه بقية المواكب. ورغم انه باسم الفيليين الا انه موكب ضخم يضم الفيليين والعرب ويشارك فيه اعضاء من المحافظات الأخرى.

لكن لماذا هذا التفضيل للمذهب على حساب القومية رغم تاكيدهم اعتزازهم بقوميتهم ؟ الاجابة تتمحور حول طبيعة الشخصية الشيعية بشكل عام وبضمنها الشخصية الفيلية. ذلك ان الفرد الشيعي عقائدي وينساق نحو الرمز بغض النظر عن قوميتهم. ولذا نجد الشيعة يقلدون المرجع الديني في النجف سواء كان ايرانياً ام عربياً. وهناك حادثة تبين عمق الولاء للمذهب على حساب القومية وهي ان ما يقرب من 25 من الفيلية الموالين لاحد الاحزاب الكردية رفضوا التصويت لشخصيات الحزب وانتظروا رأي المرجعية كي لا يقعوا في إشكال شرعي !

7- من ملاحظة نسب الاجابات على الاسئلة الخاصة بالهوية الثقافية نجد بان الهوية الاجتماعية امتصت او استوعبت الثقافية ولم تعد للأخيرة سوى قشور ومظاهر سطحية منزلية. ذكرنا سابقا كيف ان نظرية الهوية الاجتماعية أكدت ان الاندماج مع الجماعة المسيطرة يتطلب تغييرا جذريا وثقافيا، وهذا ما حصل للفيليين، فنسبة الذين يستمعون للاغاني الكردية (29%) مقابل الاغاني البغدادية (70%) وتسمية الاطفال بالاسماء الكردية قليلة (22%) بينما النسب الأكبر كانت للاسماء العربية، والجمع بينها وبين الكردية (24% , 41%)، بل ان غالبيتهم لا يرغب بارتداء الملابس التقليدية الكردية اذا سافر لكردستان (60%) ونسبة من يتكلمون بالكردية الفيلية (33%) ويفضل الباقون التحدث باللهجة البغدادية او يجمع بين الاثنين (24% , 44%). وحتى الرياضة اخذت تتجه بعيدا عن القومية، فنسبة من يشجع الفريق البغدادي (77%) تفوق من يشجع فرق الاقليم.

الشيء الوحيد الذي تميزت به هويتهم الثقافية والذي يشكل مفارقة مع الشيعة والكرد هو عيد نوروز، فغالبيتهم (69%) يعتبره يوماً للحزن ويذهبون الى النجف لزيارة امواتهم، في حين يعتبر عند الكرد عيداً وعند الشيعة العرب عطلة رسمية. وقلب العيد الى يوم حزن يحمل دلالة بالغة على ما يختزنه الفيليون من آلام، وتوجه رسالة الى المجتمع بعمق مأساتهم، ولكن لقلتهم لم يفهم رسالتهم احد.

وقد تحدثوا عن نشاطات اخرى يمارسونها تختلف عن الجماعة الشيعية كتناول اكلات خاصة بهم مثل: ترخيته وقلاو وشيربرنج وشلكين وماشبرنج وشلغماو، واداء رقصات في مناسباتهم كرقصة الجبي والفتا وسهين سمان وهجوانواه.

8- ومع هذا الميل الكبير للمذهب لكنهم ليسوا متطرفين بحيث ينسوا الآخر، فهناك رغبة تلقائية للاندماج مع الجماعات الخارجية خصوصاً السنة ويرونهم اخوة (84%). وفي الوقت الذي اجريت البحث الميداني كان البعض منهم يصلي في مرقد الشيخ الكيلاني الذي يعد ابرز المعالم الدينية السنية. وتحدثوا لي كيف انهم شكلوا فريقاً لحماية المرقد ايام الطائفية. كما نجد نسبة منهم لا تمنع من الزواج من السنة (5%) او اختيار فيلي ضمن قائمة سنية (2%) ويصوتون للسني الذي يهتم بقضيتهم (91%). اما الاتجاهات الوطنية فنجدها في عراقيتهم التي ما زالوا متمسكين بها. فهم يرغبون في ان تكون الجنسية التي يحصلون عليها معبرة عن الهوية الوطنية (72%) باكثر مما تكون قومية او مذهبية او حتى فيلية. ولذلك يرغبون بكتابة تاريخ الفيليين ضمن تاريخ العراق (50%) بشكل يتفوق على المذهب والقومية⁷³.

شخصية الفيلي

رغم ان الفيليين يرون انفسهم كجماعة مشتتة وبالتالي ضعيفة ما يدفعهم الى الاندماج بالعرب الشيعة عقائدياً (بالمذهب) واجتماعياً (بالزواج وجماعات العمل والاصدقاء) وسياسياً (باختيار التحالف الشيعي)، الا ان المستوى الآخر الخاص بالفرد كشخصية فيلية لها ميزاتها. فهم يمتازون بالكبرياء والانفة والجرأة. لا غرابة في ذلك اذا فهمناهم في ضوء التاريخ المكتوب والشفاهي. فمن اصل كلمة الفيلي نجد الانسان المتمرد والثوري، وتاريخياً كانوا عصاة على الامراء وقادة الجيوش، حتى ان تيمورلنك قال عنهم " انهم لا يعرفون معنى للخوف"، وحافظ اللور الفيليين في بشتكوه على نقاوة اصولهم وعاداتهم القبلية بحيث ان رئيسهم كان يشغل منصب الوالي لكنه في الواقع مستقل ولا يطيع الحكومة الايرانية لدرجة انه لا يدفع الضرائب المالية⁷⁴. وقد ورث الفيليون صفات الشجاعة والجرأة من امرائهم الذين كانوا عصيين على اعدائهم. خذ مثلاً ذو الفقار خان الذي حكم العراق، فقد حالت شجاعته دون احتلال بغداد من قبل الشاه طهماسب الصفوي، ولم يتمكن منه الا بالحيلة وتأمراً قادة الجيش ضده⁷⁵. ولا عجب ان بقوا وحدهم يقاتلون البعثيين سنة 1963 حتى اصبحت الحادثة سبباً رئيسياً لتهجيرهم وقمعهم. والتمرد والعصيان ربما يكون له وجه سلبي كونه احد اسباب تشتتهم لانه يبدأ من الفرد فالأسرة مروراً بالعشيرة والاتجاهات الحزبية. ويشبه فؤاد علي اكبر حالة التشتت الفيلي بإخوة يوسف، فيوسف الفيلي ما زال في غياهب الجب، واخوته من الشيعة والكردي يمارسون نفس الدور البعثي بطمسهم لهوية الفيلي، تارة باسم المذهب واخرى باسم القومية⁷⁶.

بالإضافة الى ذلك ساعد نشاطهم التجاري واثرائهم على زيادة ذلك الكبرياء بحيث انهم يضعون قاعدة (كل كردي شيوعي فيلي، وكل فيلي شيوعي). لكن هناك كتابا يرون المسألة نسبية تماما لوجود عدد من الفيليين على المذاهب السنية مثل عشائر الزند وباجلان وخرموز ولك كودري وقه شقه⁷⁷. وقد سببت هذه الكبرياء تناقضاً في شخصية الفيلي منها انهم يندمجون مع الشيعة العرب، لكنهم (سابقاً في ايام ازدهارهم) لم يسمحوا للشروكية بالمرور في شوارع عكدا الاكراد، مع اعترافهم ان الشروكية اكثر من قاموا بحمايتهم في زمن البعث. لا لتعصبهم ضد الشروكي بل لكبريائهم واعتدادهم بانهم اهل مدينة ولا يوجد لديهم فلاحين لكونهم تجار بغداد الاصيلين، بينما يعتبر الشروكي ابن الهور او الفلاح البسيط. غير ان باحثين منهم يعتقدون بوجود مزارعين فيليين خارج بغداد⁷⁸. هكذا نجدهم لا يجتمعون على رأي واحد بدءاً من اصل كلمة " فيلي " صعوداً الى القضايا الكبرى التي يتوقف عليها مصيرهم كوحدة العشيرة واختيار ممثلين لهم او تشكيل كيان سياسي موحد.

وفي عينة من الاستبيان الذي وزع عليهم يوجد هذا التناقض العجيب لديهم. فنرى من يكون رمزه الاول شيوعي (فهد) لكنه يرغب بالزواج من الشيعة والانشطة التي تطور المذهب والقراءة عن تاريخ الشيعة والمشاركة الطقوسية. والشيوعي الفيلي ليس ماركسيا راديكالياً بل هو ذرائعي، اي يتخذ من الشيوعية ايدولوجية للحصول او الحفاظ على المكاسب والمكانة التي اكتسبها من العمل التجاري. وهم لديهم القدرة على تحمل مثل هذا التناقض بسبب طغيان الروح المادية التجارية التي ورثوها من اسلافهم من جهة والتاريخ السلطاني لامراء بشتكوه واجدادهم الميديين من جهة اخرى. ولذلك المحنا الى انهم ليسوا دينيين بل طقوسيين. وهذا ايضا يعد احد الاسباب لاعتدالهم في رؤيتهم للأخر (السنّي) الذي يقاسمونه المكان والدين منذ مئات السنين. لذلك تكون طقوسهم الحسينية إشارة لولائهم لاهل البيت ورمزا لعضويتهم في الجماعة الأكبر (الشيعة).

ونتيجة لعاملي الرؤية النفعية والقلق الناتج من الماضي المأساوي، فان الشخصية اقرب الى التقلب منها الى الاستقرار النفسي. فالعديد منهم في اوراق الاستبيان يحمل ميولا نحو المذهب في اختياراته ونحو القومية في اختيارات اخرى، وكأنه يشعر بالذنب اذا فرط في احد الاثنين. وتجد آخرين يميلون الى الرمز الديني والشيوعي في آن واحد، ورغم ان هذه الاجابات لم يتم اعتمادها، الا انها تدل على عمق القلق داخل الشخصية الفيلية والمترسب من العهود الظلامية.

ذكر لي السيد حازم الفيلي احدى السمات التي تؤيد ما ذكرناه حول النفعية وهي ان الفيلي يقدم نفسه للاخرين كفيلي لا كذات مستقلة لها قيمة. فاذا أراد الانخراط في احد الاحزاب يذكر بانه فلان الفيلي مؤملاً ان يكون لقبه هذا ذريعة للحصول على المكاسب، بينما لا يفعل العربي ذلك.

المصادر والهوامش

¹ سعد اسكندر: كرد بغداد الفيلية ونظام البعث، في كتاب: الاثنية والدولة، تحرير فالح عبد الجبار وهشام داود، ترجمة عبد الاله النعيمي، معهد الدراسات الاستراتيجية، بغداد-بيروت، 2006، ص 293

² Mohammed Ihsan: Nation building in Kurdistan, Memory, genocide and human rights Routledge, 2017, p64

³ زرار توفيق : القبائل والزعامات القبلية الكردية في العصر الوسيط, مؤسسة موكراني للبحوث, 2007, ص 123

⁴ نفس المصدر ص 134 , وراجع معجم البلدان للحموي , دار صادر, 1977 , ج 5 , ص 16, 25

⁵ جواد فيلي: الكورد الفيليين, مجلة فيلي, عدد 8, 2006, ص 10

⁶ خزعل الماجدي: الفيليين لاعرب ولاعجم ولاكرد, على الرابط <http://www.adabfan.com/magazine/2496>

⁷ انظر مثلاً مقال محمد المندلاوي: الفيليين كوردُ أصلاء لا هم أنباط ولا هم أراميون على الرابط

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=421272>

⁸ سعد اسكندر: مصدر سابق ص 292 – 293, ولورستان الكبرى والجزء الاكبر من لورستان الصغرى يقع في ايران. وحول الراي الذي يقول بانهم نزحوا من كرمشاه انظر:

.Michael M. Gunter: Historical dictionary of the Kurds, Scarecrow Press, INC, 2004, 51

ولورستان كانت منطقة واحدة على الحدود العراقية الايرانية وقسمت الى كبرى وصغرى بعد اتفاقية سايكس بيكو

⁹ زكي جعفر الفيلي العلوي: تاريخ الكرد الفيليين , دار الكوثر, 2009 , ص 117-118

¹⁰ محمد تقي جون : قصة الكورد الفيليين, دار الضياء, النجف, 2012, ص 52

¹¹ نفس المصدر ص 120 , وانظر ايضا Mohammed Ihsan: Ibid, p64

¹² احمد ناصر الفيلي: الكورد الفيليين بين الماضي والحاضر, مؤسسة شفق للكورد الفيليين, ص 21

¹³ مقابلة مع د.حسين قلي خان الفيلي, اكايمي في جامعة بغداد

¹⁴ احمد ناصر الفيلي: مصدر سابق, ص 23

¹⁵ احمد ناصر الفيلي: الفيليين, الاصاله التاريخية والمواطنة المهذورة, دار آراس, 2012, ص 20

¹⁶ مقابلة مع رياض الفيلي, كاتب واعلامي

¹⁷ سيد حسين الزرباطي: الشيعة الكورد في العراق, المطبعة العصرية, 2007, ص 63 - 64

¹⁸ سعد اسكندر: مصدر سابق ص 297

¹⁹ نفس المصدر: ص 297 - 298

²⁰ نفس المصدر: ص 298

²¹ الحموي: مصدر سابق , ج 3 , ص 375. وانظر الزرباطي : مصدر سابق , فصل 4

²² سيد حسين الزرباطي: المصدر نفسه, ص 41 - 43

²³ المصدر نفسه: ص 57 بالاستناد الى تاريخ ابن خلدون ج3/ 121 . وهناك دلائل تاريخية يسردها الكاتب يطول بها المقام تشير الى

تشيع الكرد قبل ظهور الصفويين , ص 58 – 65

²⁴ خزعل الماجدي: المصدر السابق

²⁵ احمد ناصر الفيلي: الفيليين , الاصاله التاريخية...مصدر سابق: ص 176

²⁶ نفس المصدر والصفحة

²⁷ نفس المصدر : ص 174

²⁸ سعد اسكندر: مصدر سابق , ص 299

²⁹ مجموعة باحثين: الفيليين..الانتماء والمحنة , اصدارات الهيئة العامة للمسائلة والعدالة, 2014, ص 71 - 72

³⁰ هذا ما موجود على السنة الفيليين, لكن في التوثيق التاريخي رؤية مقاربة وهي ان (بع = الله, داد = عطية) أي عطية الله. وتحولت

كلمة (بع) الى لقب سلطاني هو (بك او بيك). راجع : محمد تقي جون : مصدر سابق, ص 62

³¹ Maria T.O'Shea: Trapped between the map and reality, Geography and Perceptions of Kurdistan,

Routledge, 2004, p25 . see also: Mohammed Ihsan: opcit, p64

³² محمد تقي جون : مصدر سابق, ص 87

³³ الكورد الفيليين: سلسلة منشورات المركز الثقافي الفيلي للبحوث والدراسات, 2013, ص 40

³⁴ بدات عمليات تهجير الفيليين عام 1936 تحت ظل وزارة ياسين الهاشمي في العهد الملكي. واستأنفت عام 1964 اثناء حكم عبد

السلام عارف العسكري, ولكن كانت هذه العمليات محصورة على المناطق الحدودية. وازداد التهجير تحت حكم البعث وبشكل ملحوظ.

فبين اعوام 1969-1972 قامت حكومة احمد حسن البكر باستبعاد 70000 منهم. ووصلت عملية التهجير قمتها في ظل حكم صدام

حيث تم تسفير ما لا يقل عن 300000 فيلي الى الحدود الايرانية, واستولت الحكومة على ممتلكاتهم وتركتهم دون وثائق. انظر: سيد

حسن الزرباطي: مصدر سابق, ص 26

³⁵ قمت في ذلك اليوم بتوزيع بعض اوراق الاستبيان كما شاركت الفيليين الالام التي اعتصرت سنين حياتهم. والحقيقة جاءت لحظات

نسبت فيها الاستبيان والبحث عندما شاهدت التشبيح الرمزي بنعشين احدهما للرجال ومغطى بعلم عراقي والآخر للنساء ومغطى بعباءة

سوداء, ولشده ما ألمني مشهد النسوة اللاتي يحملن النعش وهن يذرفن الدموع. وكان الحضور الرسمي من الرئاسات الثلاث غائبا تماماً.

³⁶ John B. Davis: Social Identity ,in International Encyclopedia of the Social Sciences, 2nd edition ,vol

3, Macmillan Reference USA, 2008, p 355

³⁷ Peter L. Callero: Social Identity Theory, in The Blackwell Encyclopedia of Sociology Edited by

George Ritzer, Blackwell Publishing, 2007, p 4425

³⁸ Ibid: p 4426

³⁹ احمد زايد: سيكولوجية العلاقات بين الجماعات قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات, سلسلة عالم المعرفة, الكويت, 2008, ص 28

⁴⁰ Anthony D. Smith: national identity, Penguin Books,1991,p 11-14

⁴¹ https://en.wikipedia.org/wiki/National_identity#Ethnic_Identity

⁴² نقول بتغيير الانتماء (نسبياً) لان الراي القديم كان يرى بعدم تغيير الاثنيات والقوميات, الا ان دراسات لاحقة اكدت تغييرها عبر الزمن من خلال التفاعل الاجتماعي, انظر: Alam Saleh: Ethnic Identity and the State in Iran, Palgrave Macmillan,2013,p20

⁴³ Stuart Hall: who needs identity, in: questions of cultural identity, edited by Stuart Hall and Paul Dugay,SAGE Publications,1996,p 4

⁴⁴ انظر حول هذا المزج كتاب مصطفى حجازي: الانسان المهودر, المركز الثقافي العربي, ط2, 2006, فصل2. كما ان المصطلح في المصادر الانكليزية تارة يكتب affiliation واخرى يكتب belonging .

⁴⁵ See: John B. Davis: Ibid,p355,and, https://en.wikipedia.org/wiki/Cultural_identity,

⁴⁶ تم تقريب النسب ذات الكسور العشرية فوق النصف لتصبح رقماً لتسهيل المقارنة.

⁴⁷ احمد زايد: مصدر سابق , ص 25

⁴⁸ وهذا ما اكده النائب عن التحالف الكردستاني عادل برواري بان الفيليين صوتوا في الانتخابات الحلية لصالح الشيعة ما ادى الى عدم حصول تحالفهم على مقاعد في بغداد. وارجع السبب الى انهم يفضلون المذهب على القومية. انظر الرابط:

<http://burathanews.com/arabic/news/59532>. وتقول زكية اسماعيل القيادية السابقة في الديمقراطي الكردستاني: باننا نحن الذين دفعنا الفيليين نحو الاحزاب الشيعة بسبب تقصيرنا بحقهم. ولنحاسب انفسنا اولاً, افضل من ان نلومهم , انظر:

<http://www.akhbaar.org/home/2014/4/166368.html> .

⁴⁹ يقول فؤاد علي اكبر الفيلي عضو مجلس محافظة بغداد بان ولاء الفيليين لاهل البيت يفوق ولاء الشيعة العرب.

⁵⁰ هذا الامر يذكره بعض الكتاب ايضاً, انظر سيد الزرباطي: مصدر سابق, ص 47.

⁵¹ يوسف محمد الفيلي: قضيتنا مثل "صخرة سيزيف" على الرابط: <http://www.ara.shafaaq.com/26469>

⁵² Sturt Hall: cultural identity and Diaspora ,in: J.Rutherford (ed):Identity ,London ,Lawrence and wishart,1990, p223

⁵³ Mohammed Ihsan: opcit , p 63

⁵⁴ عرض لي شيخ العشيرة في الحوار الجماعي مع الفيليين صفحة من كتاب التاريخ الخامس الابتدائي وفيه رسم يبين مكونات المجتمع العراقي كافة دون اي ذكر للفيليين. وقال بان ذلك ابلغ دلالة على اهمال الحكومة لهم. ويحمل عادل مراد الفيلي سكرتير المجلس المركزي للاتحاد الوطني الكردستاني بعض القيادات الكردية (الشابة) الاوضاع الصعبة للفيليين وتجاهل الكرد لدور الفيليين في تأسيس الحركة الكردية. وهذا الامر فتح الباب للاحزاب الدينية لتستغل قضيتهم وفصلهم عن الامة الكردية. انظر الرابط:

<http://www.gilgamish.org/printarticle.php?id=26016>, كما يلقي الكاتب كاظم حبيب مسؤولية اهمال حقوق الفيلية على

حكومتي المركز والاقليم واللعب على عطفهم في الوعود الكاذبة. انظر الرابط: <http://www.ara.shafaaq.com/64727>

⁵⁵ قاسم المندلوي: الكرد الفيلية في العراق, كيان مهمش وحقوق ضائعة, على الرابط <http://www.ara.shafaaq.com/16045>

⁵⁶ تشير التقديرات الى وجود اكثر من خمسة الاف متطوع فيلي في الحشد جاء 400 منهم من ايران. ويسمى لوائهم بلواء الكرد الفيلية. انظر الرابط: <http://en.haberler.com/400-faili-kurds-to-move-from-iran-to-iraq-to-fight-664544>

⁵⁷ علي حسين الفيلي: هل هناك بديل ثالث للفيليين, على الرابط

[/http://www.shafaaq.com/ar/Ar_NewsReader/be9fd617-e2df-4890-a862-81b7e6dd582c](http://www.shafaaq.com/ar/Ar_NewsReader/be9fd617-e2df-4890-a862-81b7e6dd582c)

⁵⁸ احمد زايد: مصدر سابق , ص 26

⁵⁹ جلال الحصاني: المسيرة الدامية للكورد الفيليين, مكتبة الثقافة, واسط-العراق, ص 169 . وذكر الفيليين نفس هذه الامور وزادوا عليها, كما ذكروا ان الجندي احمد طهماز سفره النظام الى ايران وعاد بعد سقوطه ومات في العراق.

⁶⁰ Mohammed Ihsan: opcit , p 63

⁶¹ Mohammed M. A. Ahmed: Iraqi Kurds and nation-builging, Palgrave Macmillan,2012, p5

⁶² يذكر د. حسين قلي خان ان جده غلام رضا خان طلب حينها دعم المرجعية لاصدار فتوى للشيعة بمبايعته على ان يحول العراق الى مملكة علوية. لكن المرجعية رفضت العرض. ورجع شاه ايران المرتبط ببريطانيا بترشيح فيصل كي لا يتحول العراق الى مملكة شيعية منافسة وخوفاً من غلام خان الذي كان عصبياً عليه ولم يستطع هزيمته واحتلال اراضيه. ولو اصبح غلام خان ملكاً لا صبحت كل اراضي لورستان التابعة لايران عراقية. واثناء المناقشة على العرش اختار غلام خان النجف عاصمة له لان فيها الثقل المرجعي ومدفن الامام علي, في حين اختار فيصل بغداد لنقلها الاقتصادي ولوجود اليهود المشهورين بالتجارة. وغير غلام خان لقبه الى (علوي) لوجود نسب بينه وبين عبد الله بن العباس بن علي اخو الحسين, كي يفتح المرجعية, لكن الحقيقة ان هذا النسب وهمي لانه يعود الى عشيرة (اللك) احدى عشائر اللر واصلهم سلورز وكان اجدادهم كهنة معبد زرادشت في يزد بايران الذين وصفهم القرآن بالمجوس. ولقب العلوي ما زال سارياً في ذريته الى اليوم. لكن غلام خان اوصى ان يدفن في مقبرة خاصة بالنجف وفي قبر بشكل اسطوانة قائمة (كرمز لشموخه) على ان يكون ظهره على المرجعية ووجهه نحو لورستان, لان المرجعية ادارت ظهرها له ! اما توثيق الحادثة عند (زكي جعفر الفيلي: مصدر سابق , ص 248 – 252) فيشير الى انه دفن بجوار مرقد الامام علي ولم تذكر شيئاً عن موقف المرجعية.

⁶³ احمد زايد: مصدر سابق ص 21-22

64 العديد من المصادر التي تشير لهذه الحادثة تقول بانها مفبركة من النظام لغرض تهجير واعتقال الفيلبيين, لكن الحقيقة التي سردها اهالي عكدا الاكراد تشير الى ان غلام كان عضوا في حزب الدعوة وقام فعلاً بالقاء القنبلة, وهو موضع فخرهم.
65 ذكر لي السيد حسن كاكي في لقاء خاص ان الفيلبيين حصلوا على ثلاث مقاعد في الجمعية الوطنية التي تشكلت في عهد بريمر ثم مقعدين في الدورة الانتخابية الاولى, وكان حصولهم على المقاعد لكون الدائرة مغلقة. لكنهم اليوم معدومي التمثيل بسبب تشتتهم. ويوجد تمثيل لهم في مجلسي محافظتي بغداد وواسط بمقعد واحد لكل محافظة, وتمثيل حكومي على مستوى سفير هو لقمان الفيلي في الولايات المتحدة.

66 جويل كاننو: الذاكرة والهوية, ترجمة وجيه اسعد, الهيئة العامة السورية للكتاب, 2009, ص199

67 مجموعة باحثين: الفيلبيون..مصدر سابق, ص 71-93.

68 للمزيد يراجع محمد تقي جون: مصدر سابق, ص 66-70 . ويشير متقفيهم الى ان شخصيات عربية مشهورة مثل الشاعر احمد شوقي وقاسم امين ... فيلية الاصل, انظر للمزيد : ملا فرياد: عظماء الكرد في خدمة العرب, مجلة فيلي, عدد 16, 2007, ص 16-18
69 عادل مراد: المصدر السابق. الجدير بالذكر ان حبيب محمد كريم اخو القيادي جعفر محمد كريم قد رشحه حزب البارزاني ككاتب

للرئيس احمد حسن البكر عام 1970 لكن الاخير رفض باعتباره تبعية إيرانية. انظر Michael M. Gunter: opcit, p51

70 حنا بطاطو: العراق ج 2 , الحزب الشيوعي, ترجمة منيف الرزاز, مؤسسة الابحاث العربية ط2 1996, ص 124, 149
71 من غرائب الامور ان صدام رغم حقه وقمعه للفيلبيين لكن مرافقه الاقدم والذي كان يصاحبه كظله صباح مرزا, فيلي الاصل, وكان اخوه ارشد مسؤولا كبيرا في الجهاز الامني وتسلم رئاسة نادي الزوراء !

72 اكثر المراجع تقليدا حسب قولهم هو الشيرازي ولا يحظى السبستاني الا بنسبة قليلة. حتى ان قائمة تابعة للشيرازي كان غالبيتها من الفيلبيين. وتعتبر مراجع البيت الشيرازي اكثر من تجيز الطقوس التي فيها اشكال لدى باقي المراجع وعلى راسها طقس التطبير يوم عاشوراء.

73 لكن هذه الروح الوطنية لم تمنع بعض متقفيهم من التعبير عن يأسه وغر بته داخل العراق بالقول: لم نعد نأبه بان يطلقون علينا تسمية العراقيين او غير العراقيين.. نحن الفيلبيين ذقنا ونذوق حلاوة ومرارة الانتماء لشيء اسمه العراق. انظر: علي حسين فيلي: عندما لا نأبه بعراقيتنا <http://www.ara.shafaaq.com/36607>

74 عبد الجليل الفيلي: اللور (الكرد) الفيلبيون في الماضي والحاضر, وزارة الثقافة باقليم كردستان, 1999, ص 103 – 104 . للمزيد عن شجاعة امراء الفيلية ينظر: زكي جعفر الفيلي: مصدر سابق, فصل 7

75 محمد تقي جون: مصدر سابق , ص 66 .

76 فؤاد علي أكبر: الفيلبيون واخوة يوسف, على الرابط <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=244845>

77 عبد الجليل الفيلي : مصدر سابق, ص 111-115 . وانظر كتاب الشيعة الكرد للزرباطي: مصدر سابق, ص 63 – 64 حول وجود شيعة كرد من غير الفيلبيين.

78 عبد الجليل الفيلي: المصدر نفسه, ص 11-112 وكذلك مجموعة باحثين: مصدر سابق, ص 51 .